

صورة الفخر الأدبي عند ابن نباتة المصري

حسن سرباز

أستاذ مساعد بجامعة كردستان

سُعدى أسعدي

خريجة في مرحلة الماجستير من جامعة كردستان

حسام الدين خاكپور*

طالب الدكتوراه بجامعة طهران

(۷۱-۸۸)

تاريخ الاستلام: ۹۱/۱۱/۲۳؛ تاريخ القبول: ۹۲/۰۲/۰۴

الملخص

الفخر من الفنون الشعرية الشائعة يتغنى فيه الشاعر بخصاله أو بخلال قومه، وقد تطرق إليه معظم الشعراء في العصور المختلفة من تاريخ الأدب العربي. وللشعر أنواع مختلفة: منها الفخر الفردي، والأدبي، والسياسي، والديني... إلخ.

كان الفخر في العصور الماضية كثيراً للغاية، وذلك بسبب كثرة دواعيه: من النوازع النفسية، والافتخار بالحسب والنسب، والتفاخر بالقوم والقبيلة. ولكن كلما تقدم الزمان من العصر الجاهلي إلى العصر الإسلامي ومن العصر الأموي إلى العصر العباسي، أصبح حجمه طفيفاً ضئيلاً. فقد تقلصت هذه الظاهرة في العصر المملوكي، وأصبح معبراً عن ذات الشاعر وهمومه، وراج نوع خاص من الفخر الذاتي سمي الفخر الأدبي. كان جمال الدين ابن نباتة المصري من فحول شعراء هذا العصر، فقد تناول في شعره إلى جانب بقية الفنون الشعرية موضوع الفخر دون أن يختص به باباً خاصاً، حيث تطرق إليه في خاتمة مدائحه ومقطوعاته الشعرية. ويدور معظم فخرياته حول الفخر الأدبي، فيفتخر بشعره وقريضه كما يفتخر بشاعريته ومواهبه الشعرية. يهدف هذا البحث بالاستفادة من المنهج الوصفي-التحليلي إلى دراسة صورة الفخر الأدبي في شعر ابن نباتة المصري. فيصل الباحث مستفيداً من هذا المنهج إلى بعض النتائج: فالشاعر لم يترك موضوعاً من مواضيع مدحه للكبراء إلا أشاد بشعره، وقارن بين نفسه وبينهم، وكان من أكثر شعراء عصره اعتزازاً بمآثره الأدبية، فيفضل نفسه على أساطين الشعر العربي في العصور المنصرمة كحسان والبحري وأي تمام.

الكلمات الدلالية: الفخر، الفخر الأدبي، النرجسية، ابن نباتة.

المقدمة

إنَّ الفخر من فنون الشعر الغنائي يتغنى فيه الشاعر بخلاله أو بخلال قومه، مؤكداً على رفعة الحسب، والنسب، والكرم، والشجاعة، ومكارم الأخلاق انطلاقاً من حبِّ الذات كنزعة إنسانية طبيعية. ولم يكن الفخر هدفاً بحدِّ ذاته، لكنَّه كان وسيلةً لرسم صورة عن النَّفس؛ ليخافها الأعداء، فتجعلهم يترددون طويلاً قبل التعرض للشاعر أو لقبيلته، إذن الفخر كان له أكثر من معنى، وأكثر من دور، وله التصاق شديد بالذات الإنساني، حيث إنَّ الإنسان بطبيعته يحبُّ ذاته، ويتأمل في نفسه، ويقارن بينه وبين غيره من النَّاس، لكنَّه عادة لا يرى عيوبه، بينما يرى عيوب الآخرين كلَّها، ومهما كان صادقاً مع نفسه، يتغلب عليه الغرور؛ فيؤمن بأنَّه أفضل بكثير من غيره (سراج الدِّين، د.ت: ۵).

وكان الفخر من الفنون الأدبية الشائعة في الأدب العربي، فقد تطرَّق إليه معظم الشعراء في العصور المختلفة من تاريخ الأدب العربي. وكان هذا النوع من الشعر في العصور الماضية كثيراً للغاية، وذلك بسبب كثرة دواعيه من النوازع النفسانية، والافتخار بالحسب والنسب، والتفاخر بالقوم والقبيلة. ولكن كلاً ما تقدَّم الزمان من العصر الجاهليِّ إلى العصر الإسلامي ومن العصر الأموي إلى العصر العباسي، أصبح حجمه طفيفاً ضئيلاً.

وقد تقلَّصت هذه الظاهرة في العصر المملوكي، ولكن لا يمكن أن يقال إنَّ هذا النوع من الشعر قد انتهى من قاموس أغراض الشعر في العصر المملوكي، لأنَّ هذا الفن قد بقي معبراً عن ذات الشاعر وهمومه، لكن بقيم جديدة حلَّت مكان القيم القديمة، القيم التي تناسب العصر و تواكب سير الزمن ومستجدات الأمور في هذا العصر. فَمِن شعراء هذا العصر الذين تطرَّقوا إلى الفخر في شعرهم جمال الدِّين ابن نباتة المصري، وهو لم يخصَّص له باباً خاصاً، بل تطرَّق إليه في خاتمة مدائحه ومقطوعاته الشعرية. تدور معظم فخرياته حول الفخر الأدبي، فيفتخر بشعره وقريضه كما يفتخر بشاعريته و مواهبه الشعرية.

الدراسات السابقة

في ما يتعلق بموضوع البحث لم نجد دراسة مستقلة بهذا العنوان، لكن هناك دراسات ذات صلة بالموضوع، منها ما يتعلَّق بحياة ابن نباتة وشعره ومنها ما يتعلَّق بفن الفخر عند بعض الشعراء.

وَأَمَّا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِحَيَاةِ ابْنِ نَبَاتَةَ الْأَدَبِيَّةِ وَشِعْرِهِ فَتَحَدَّثَ أَبُو الْحَسَنِ أَمِينُ مَقْدَسِي (۱۳۷۹) فِي مَقَالِهِ «مَقْدَمَةٌ عَلَى شِعْرِ ابْنِ نَبَاتَةَ» عَنِ الْاِقْتِبَاسِ وَالتَّقْلِيدِ، وَالاِصْطِلَاحَاتِ النَحْوِيَّةِ وَالبَلَاغِيَّةِ وَالعَرُوضِيَّةِ فِي شِعْرِ ابْنِ نَبَاتَةَ. وَأَشَارَ نَفْسُ الْكَاتِبِ (۱۳۷۹) فِي مَقَالٍ آخَرَ تَحْتَ عِنْوَانِ «أَثَرُ الْقُرْآنِ فِي شِعْرِ ابْنِ نَبَاتَةَ» إِلَى الْاِقْتِبَاسَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ فِي شِعْرِهِ. وَتَطَرَّقَ حَامِدُ صَدَقِي وَرَحِمَتْهُ اللَّهُ حِيدْرِي مَنْش (۱۳۹۰) فِي مَقَالِهِمَا «الْخِصَائِصُ الْفَنِّيَّةُ لِشِعْرِ ابْنِ نَبَاتَةَ الشَّاكِي» إِلَى بَعْضِ الْخِصَائِصِ الْفَنِّيَّةِ فِي شِعْرِ ابْنِ نَبَاتَةَ مِنْهَا الْمَعْجَمُ الشَّعْرِي، وَالتَّرَاكِيْبُ، وَالأَسْلُوبُ، وَالمَعْجَمُ الْإِيْقَاعِي. وَ دَرَسَ سَيِّدُ مُحَمَّدُ أَمِيرِي (۱۳۹۰) فِي مَقَالِهِ تَحْتَ عِنْوَانِ «التَّصْوِيرُ الْفَنِّيُّ الْبَاهِتُ لِلتَّرَاثِ فِي شِعْرِ ابْنِ نَبَاتَةَ خَاصَّةً مَدَائِحَهُ النُّبُوَّةِ» تَقْلِيدَ ابْنِ نَبَاتَةَ لِلسُّعْرَاءِ السَّابِقِينَ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ وَالإِسْلَامِيَّةِ وَالعَبَاسِيَّةِ، كَمَا دَرَسَ فَنَ البَدِيعِيَّاتِ عِنْدَهُ وَاسْتَفَادَتَهُ مِنْ بَعْضِ التَّصَاوِيرِ الْفَنِّيَّةِ وَالمَحْسَنَاتِ البَدِيعِيَّةِ.

وَ أَمَّا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِفَنِّ الْفَخْرِ فَمَقَامُ خَلِيلِ پَرُوِيْنِي وَ تُوْرَجُ زِيْنِي وَ نَد (۱۳۸۳) فِي مَقَالِهِمَا «الْفَخْرُ فِي شِعْرِ الْمَتْنِيِّ وَ الْخَاقَانِيِّ» بِدَرَاةٍ مَقَارِنَةً لِفَنِّ الْفَخْرِ فِي شِعْرِ الْمَتْنِيِّ وَ الْخَاقَانِيِّ. وَ دَرَسَ فَيْرُوزُ حَرِيْرَجِي وَ زَمَلَاؤُهُ (۱۳۹۰) فِي مَقَالٍ تَحْتَ عِنْوَانِ «صورة الفخر في شعر أبي فراس الحمداني» فَنَّ الْفَخْرِ فِي شِعْرِ أَبِي فِرَاسٍ وَتَحَدَّثُوا عَنِ أَنْوَاعِ الْفَخْرِ، وَ مَرَاةِ، وَ عَوَامِلِهِ وَ مَوْضُوعَاتِهِ، كَمَا تَحَدَّثُوا عَنِ الْخِصَائِصِ الْعَامَّةِ لِفَخْرِيَّاتِ أَبِي فِرَاسِ الْحَمْدَانِيِّ.

الفخر و أنواعه

«الفخر لغة بمعنى التمدح بالخصال وعدّ القيم. وقد يأتي الفخر بمعنى ادعاء العظم والكبر والشرف. وهذا المعنى جاء في الحديث النبوي: أنا سيّد ولد آدم و لا فخر، أي: لا أقوله تبحّحاً، ولكن شكراً لله و محدّثاً بنعمه». (ابن منظور، ۱۴۱۴: ۴۸/۵)

وَ أَمَّا فِي الْاِصْطِلَاحِ فَقَدْ جَعَلَهُ أَبُو هَلَالِ الْعَسْكَرِي دَاخِلًا فِي فَنِّ الْمَدِيحِ، وَاسْتَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ بِ«أَنَّ الْفَخْرَ هُوَ مَدْحُكَ نَفْسَكَ بِالطَّهَارَةِ، وَالعِفَافِ، وَالحَلَمِ، وَالعِلْمِ، وَالحَسْبِ، وَ مَا يَجْرِي مَجْرَى ذَلِكَ». (العسكري، ۱۴۱۹: ۱۳۱) وَ أَكَّدَ عَلَى نَفْسِ الْمَعْنَى ابْنُ رَشِيْقِ الْقَيْرَوَانِيِّ، وَجَعَلَهُ نَوْعًا مِنَ الْمَدِيحِ، وَقَالَ: «وَالْاِفْتِخَارُ هُوَ الْمَدْحُ بَعِيْنِهِ، إِلَّا أَنَّ الشَّاعِرَ يَخْصُّ بِهِ نَفْسَهُ وَ قَوْمَهُ». (القيرواني، ۲۰۰۱: ۹۲/۲) وَ لَكِنْ مَصْطَفَى صَادِقُ الرَّافِعِي لَا يَقْبَلُ هَذَا

الرأي، ولا يعتبر الفخر مديحاً، بل يجعله وسيلة لإحياء التاريخ المملوء بالفضيلة، فيقول: «فحقيقة الفخر إذن ليست مدحاً كما قيل، و لكنّها تأريخ، وسواء في معنى التأريخ فضيلة الفرد وفضيلة الجماعة... وعلى هذا التأويل نرى الفخر فطرة في العرب، فلا يكاد السيد منهم يأتي عملاً إلاّ تناوله شاعر قبيلته وفخر به، لأنّه لسان القبيلة ومؤرّخ أحسابها، وإذا فخر أحدهم بفضيلة في نفسه كالشجاعة أو الكرم أو غيرهما، فإنما يكون ذلك في معرض التذكير بهذه الفضيلة واستشهاد التاريخ السحيّ عليها، أو يكون توطيئاً لنفسه وتحميئاً لها بما يهيج عن كبرياتها». (الرافعي، ٢٠٠٠: ٧٨/٣)

و مما تقدّم نصل إلى أنّ الفخر هو أن يمدح الشاعر نفسه أو قومه وعشيرته بالخصال الكريمة والخلال الحميدة، ورفعة الحسب والنسب، والشجاعة، وكرم المحتد، ومكارم الأخلاق، وذكر الأيام. وبذلك نستطيع أن ندرج نوع العلاقة بين الفخر والمديح. إذن للفخر علاقة وثيقة بالجانب الذاتي في الإنسان، «فهو صدى تطلّع النفس إلى ذاتها، والتعبير عن الأثرة أشدّ النزعات فيها. والإنسان، كما لا يخفى، سجين ذاته منذ الولادة، يدم النظر في مرآتها، مستجلباً محاسنها، صابغاً قبائحها بما يجعلها في ميزانه دون قبائح التأس أجمعين، مقارناً فيما بينها وبين غيرها؛ وهذا الإيثار للنفس، إذا تجسّم في عبارات شعرية، كان الفخر». (الفاخوري، د.ت: ٥).

وقد يصل الفخر إلى حد العجب، والكبر، والتعظيم على الآخرين. والفخر بهذا المعنى أمر مرفوض قد نهى عنه الإسلام، فقال تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ». (لقمان/١٨)

وللفخر أنواع مختلفة ذكر منها حنا الفاخوري أربعة أقسام، فهي: الفخر الذاتي، والفخر الحزبي و السياسي، و الفخر الدينيّ، والفخر الحزبيّ (الفاخوري، د.ت: ٥). ويمكن أن نضيف إلى هذه الأقسام الأربعة نوعاً خامساً وهو الفخر الأدبي.

وأما الفخر الذاتي فهو ما دار حول العقل والقلب واللسان والساعد، وما دار حول القبيلة والآباء والأجداد. والفخر الحزبي فهو لسان الحزب ينطق بحقوقه وطموحه، وينشر تعاليمه وآراءه، ويهدف إلى الامتداد والاستيلاء. قد ازدهر هذا النوع من الفخر منذ فجر الإسلام، وعلا نجمه في العهد الأموي، فذلك لقيام الأحزاب الممتنحرة من أمويين وعلويين وزبيريين وخورج وغيرهم. وأما الفخر الديني فهو ما دار حول الدين ومعتقداته وأحكامه

وقيمه الأخلاقية. فظهر الفخر الديني مع ظهور الإسلام، ورافقه في عصوره المختلفة. والفخر الحربي فهو شعر الحماسة، ونشأ مع العربي منذ كان، ومنذ ارتقى في أحضان طبيعة قاسية جعلته غرضاً لأحداث الزمان، ونكبات الحداث؛ وقد فطر العربي لذلك على الشجاعة والقتال، وأصبح القتال جزءاً من حياته الطبيعية. (المصدر نفسه: ٥-٦).

و الفخر الأدبي هو أن يفتخر الشاعر بشعره و شاعريته و مواهبه الشعرية، لأن الشعر «مأثرة من المآثر و فضيلة من الفضائل التي بها اعتدّ العربي وافتخر إلى جانب السيف والحواد والخصال الحميدة». (يوسف، ٢٠٠٣: ٣٦٣)

ابن نباتة المصري و مكانته الأدبية

ولد جمال الدين محمد بن محمد المعروف بـ«ابن نباتة المصري» في الفسطاط بمصر سنة ٦٨٦هـ، وهو من سلالة ابن نباتة الخطيب عبد الرحيم، خطيب سيف الدولة الحمداني، وكان والده شمس الدين ابن نباتة عالماً أديباً وشاعراً وراوية للحديث. وهكذا ولد الشاعر في بيئة علمية جليلة، ونشأ في بيت معرفة وعلم وأدب مما أثر على حياته العلمية ومكانته الأدبية. (الخفاجي، ١٩٩٠: ١١٥)

درس ابن نباتة الحديث والفقه والأدب على أشهر أعلام مصر في عصره، ومن بينهم: العالم الكبير «ابن دقيق العيد»، و«بهاءالدين بن نحاس النحوي». (فروخ، ١٩٨٩: ٣/٧٩٤)

«اتصل ابن نباتة بآل فضل الله في مصر، وهي أسرة كان عدد من أبنائها يتولون الكتابة للأيوبيين في مصر والشام، ولكن لم يهتمّ به الأيوبيون في مصر؛ ولذلك غادر مصر سنة ٧١٦هـ، وتوجّه إلى بلاد الشام واتصل بالملك المؤيد إسماعيل أبي الفداء صاحب حماة، فحظي عنده، وكان يمدحه ويؤلف له الكتب إلى أن توفي أبو الفداء سنة ٧٣٢ق، فاتصل بابنه الملك الأفضل. وفي سنة ٧٦١هـ عاد ابن نباتة إلى القاهرة وتوفي فيها سنة ٧٦٨هـ.» (المصدر نفسه: ٣/٧٩٤-٧٩٥).

«و بدأ ابن نباتة نظم الشعر مبكراً، وما لبث أن علا نجمه في الشعر والأدب، وكان يتردد على مراكز العلم والأدب في مصر وبلاد الشام، وكان لهذا التردد أثر كبير في اتساع مدى فكره الأدبي وذوقه الشعري حتى أصبح من كبار شعراء عصره، بحيث اعتبره الشوكاني أشعر المتأخرين علي الإطلاق»، (الشوكاني، د.ت: ٢/٢٥٣) وقال عنه السبكي: «هو حامل لواء

الشعراء في زمانه، وما رأينا أشعر منه ولا أحسن نثراً ولا أبدع خطأً. له فنون ثلاث، لم نر من لحقه ولا قاربه فيها: سبق الناس إلى حسن النظم فما لحقه لاحق في شيء منه، وإلى أنواع النثر فما قاربه مقارب إلى ذروة منه، وإلى براعة الخط فما قدر معارض على أن يحكي له خطأً أو يجاريه في أصول كتابته». (السيكي، ١٤١٣: ٣٧٣/٩)

وتطرق ابن نباتة في شعره إلى موضوعات مختلفة منها المديح، والرتاء، والنسيب والغزل، والخمريات والغنائيات بالإضافة إلى الموشحات التي شملت أكثر من غرض واحد (باشا، ١٩٩٩: ٣٥٤).

«و يمتاز شعره بالرقة، وحسن التورية، والاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف، ثمّ بالالتكاء على مصطلحات أصحاب النحو والعروض والفقهاء والتصوف والفلسفة مع نظر إلى مصطلحات الشيعة. وهو في ذلك يُكثر من الصناعة حتى يصبح جانب من شعره رمزاً». (فروخ، ١٩٨٩: ٣/٧٩٥ - ٧٩٦)

«ولابن نباتة إلى جانب شعره نثر فنيّ بليغ، سلك فيه منهج القاضي الفاضل في تكلف الصنائع البديعية مع تخييره للسهولة وبعده عن التعقيد والغرابية». (الخفاجي، ١٩٩٠: ١٣٣)

صورة الفخر الأدبي عند ابن نباتة المصري

كان الشاعر المملوكي يفتخر بشعره ومواهبه الشعرية، كما كان يفتخر بنفسه وفضله وعلمه وعلوّه واهمته وفكره. ومن تقاليد الشعراء في هذا العصر أنّ الشاعر عند ما كان يجمع شعره في ديوان كان يقدّم بين يديه أبيات يمدحه فيها، ويفتخر بشاعريته. فحين زمره هؤلاء الشعراء ابن نباتة المصري الذي كان يزهو بأنّ ديوان شعره رقيق النظم، مستعذب اللفظ، لا يحطّ من شأنه قلته، ويشبّه ألفاظ شعره بالماء الزلال الذي يخرج من الصخور، ويلقب شعره بالفلك الأثيري لرفعة شأنه وسموّه فيقول:

ولي لفظ رقيق الورد جزل كما نبع الزلال من الصُخور
سما شعري و عاد على علاهم فلّقناه بالفلك الأثيري

(ابن نباتة، د.ت: ٢١٤)

افتخاره بشعره ومواهبه الشعرية

نشأ ابن نباتة في بيت ثري، وأسرة ذات الجاه والنفوذ، وفي ظلّ أب عطوف حنون، أب ذاع صيته في العلم والفضل والأدب آنذاك، وترعرع في بيئة يتنافس الشعراء فيها للزعامة وقبول الآخرين وإعجابهم، فيفتخر بأبيه وأسرته فخوراً قائلاً:

لي حين أنسب أسرة عربية كانت تُعدُّ الشُّهْبُ من أحلافي

(ابن نباتة، د.ت: ٣٢٣)

وفي مكان آخر يفتخر بأسرته، ويعتبر نفسه وريث اللفظ من أسلافه وأهل بيته، و يقول:
إنّ حلاوة لفظه ورشاقته ترجع إلى ما ورثه من آبائه وأجداده فيقول:

ورثتُ اللَّفْظَ عن سلفي وأكرم بآلِ نُبَاتَةِ الْفُرِّ السَّرَاقِ
فلا عَجَبٌ لللفظي حينَ يحلُّ فهذا القطرُ من ذاكِ التِّبَاتِ

(المصدر نفسه: ٨٠)

كان ابن نباتة يعرف مواهبه القوية في الشعر، ويدرك تفوقه الشديد على شعراء عصره، ومن ثمّ كان كثير الزهو بنفسه، كثير الإعجاب بشعره وشاعريته ومواهبه في القريض.
(الخفاجي، ١٩٩٠: ١١٩) فيقول مرحّباً بنظمه:

مرحباً بالتّظم يأتي نفحةً من بعد نفحه
من بياضٍ باكرتها سحراً بالسّفح سفحه
ولآلِ نظمتها بركات ضمن سبحة
و عروس جعلت لي من بياض الوصل صبحه
كنتُ في الشّعر جواداً يحرز السّبِق بلمحه

(ابن نباتة، د.ت: ١١٤)

فهو يرحّب بهذا التّظم يأتيه كنفحات العطر نفحة إثر نفحة، وما أبدع هذه الصّورة التي تجلّت لنا في حديثه عن البركات التي نظمت في سبحتها هذه الآلي اللامعة. فهي مغرقة في رمزيّتها وإيحائها. أما هذه العروس فصورة رمزية في هذه الأبيات، إذ يتحدّث عنها وكأنّها ليست قصيدة، بل هي عروس مجلوة جعلت له من بياض الوصل صبحه. إنّ الشّاعر جواد بشعره، تفيض قريحته بأجمل المعاني، وهو باستطاعته أن يحرز السّبِق بطرفة عين ولمحة.

(باشا، ١٩٩٩: ٣٨٨)

إنّ ابن نباتة مشهور بين أبناء عصره بالرقّة والدقّة، والعدوبة، والحلاوة، وهذه التّعوت الأربعة هي ما اصطُح على تسميتها بالانسجام التّباتي، لكنّ الشّوكاتي استحسن أن يقرن الرقّة بالانسجام، وقد جاء ذلك خلال ترجمته للبيشكتكي جامع ديوان ابن نباتة في قوله: وأخذ الأدب عن ابن نباتة، وقال الشّعر الحسن، فكاد يحكيه في الرقّة والانسجام (باشا، ١٩٩٩: ٣٨٣). وقد أشار الشاعر إلى هذه الرقّة وإلى هذا الانسجام قائلاً:

كانت للفظي رقّةً ضنّ الزّمان بما استحقّت
فصرفتها عن قدرتي وقطعتها من حيث رقت
(ابن نباتة، د.ت: ٨١)

كان ابن نباتة زعيم الشعر والشعراء في عصره فسَمّي «أمير شعراء الشّرق» اعترافاً بفضله وشاعريّته، وكان يعرف مكانته الشعريّة هذه، ولكن مع ذلك لم يكن حظّه من الدنيا كثيراً، ولذلك نراه يشكو من سوء حظّه، ويئنُّ من خيبة آماله متأكّداً في الوقت نفسه على ثروته اللفظية، ويتعجّب من الفارق الكبير بين ثروة لفظه وافتقار يده فيقول:

لا عارَ في أدبي إن لم ينل رُتباً وإنما العارُ في دهري وفي بلدي
هذا كلامي وذا حظّي فيا عجباً مَنّي لِثروة لفظٍ وافتقار يدِ
(المصدر نفسه: ١٢٥)

يستخدم ابن نباتة في كثير من الأحيان التّشاييه الرائعة ليجعلنا آمينين بما له من العبقرية والقوة الشاملة في التقرّيز وإنشاد الشعر فنراه يشبّه شعره بالدرّ، والسكر، والنبات فيقول في تاجية:

لي من أدعبي ولفظي درّ حسن الاتّساق و الازدواج
تلك منشورة على حُلّة الح سن و هذا منظم في التّاج
(المصدر نفسه: ٨٧)

وفي قصيدة أخرى يعتبر نظمه أحسن من الدرّ وأبيات شعره أرقى من القصر فيقول في قصيدة له في الملك الأفضل:

فما الدرُّ إلاّ دونَ نظمٍ أنصه وما القصرُ إلاّ دونَ بيتٍ أشيده
(المصدر نفسه: ١٣٩)

وفي موضع آخر يشبّه مديحه لابن فضل الله العمري بحذاء يتعنى به المسافرين طوال رحلتهم، فلا يصيبهم الملل ولا التعب. ثم يخاطب ممدوحه ذا الخصال الحميدة ويقول له: أنت الذي أنطقني ببدايع مثيرة تثير حفيظة المنافسين، وتجعلهم خائبين فيقول:

يغني بمدحي فيك حادٍ وسامرٌ فطابت عليه رحلةٌ و إيابُ
وأنت الذي أنطقني ببدايع بغيظ أناسٍ قد ظفرتُ وخابوا
فما النظم إلا ما أحررُ فاتنٌ وما البيت إلا ما سكنت يبابُ
إليك النهي قلبي لمن قال ملجماً وخفّ له في الخافقين ركابُ
(المصدر نفسه: ٣٠)

إظهار فضله وتفوقه علي بعض فحول الشعراء

لايفتخر ابن نباتة بشعره فحسب، بل يفضل شعره ومواهبه الشعرية بعض الأحيان على شعر فحول الشعراء قبله. ففي قصيدة في مدح الملك الأفضل يدعي أن مدائحه فيه أحسن مما أنشده الممتني في مدح سيف الدولة وأن ألفاظ مديحه أرقى من ألفاظ شيخ المعرة أبي العلاء المعري فيقول:

أصوغ له مدائح لم يصغها على سيف العلى نجل الحسين
وأطلق فيه ألفاظاً تسامت على ألفاظ رهن المحبين
(المصدر نفسه: ٤٩١)

يقول: ما صنعت من المدائح لممدوح، لم يصغها الممتني لسيف الدولة، فإن مدائحي أعظم وأفضل من مدائحه، وإن ألفاظي أفضل من ألفاظ أبي العلاء المعري. وفي رائيته المعروفة في مدح النبي (ص) يدخل في سوق المنافسة مع كبار الشعراء في عصور الازدهار للشعر العربي، ويفضل شعره على شعر أبي تمام الطائي والبحري، ويدعي أن قصيدته التي أنشدها في مدح النبي (ص) تباهي شعر بقية الشعراء فيقول:

ونظمت شعري فيك تُزهي قصيدةً على كل ذي بيت من الشعر يعمرُ
مُعظمةً المعنى يكرّر لفظها فيحلو نباتي الكلام المكررُ
دنت من صفات الفضل منك وإنها لتفضل ما قالته طي وبُحترُ
(المصدر نفسه: ١٨٣)

وفي قصيدة أخرى يضع نفسه في عداد فحول شعراء الأندلس، ويدّعي أنّ شعره يذكرّ الناس بشعر معتمد بن عبّاد وابن زيدون حيث يقول:

مَنْ مُبْلِغِ الْعُرْبِ عَنْ شِعْرِي وَدَوْلِيهِ	أَنَّ ابْنَ عَبَّادٍ بَاقٍ وَ ابْنَ زَيْدُونَا
حَبْرَتْهَا فِيهِ زَهْرَاءُ الْمَعَاطِفِ مِنْ	أَعْلَى وَأَنْفَسٍ مَا يَهْدِي الْمُجِيدُونَا
إِذَا رَأَيْتَ قَوَافِيهَا وَ طَلَعَتْهَا	فَقَدْ رَأَتْ مَقْلَتَاكَ الْبَحْرَ وَالتُّونَا
كَأَنَّ أَلْفَظَهَا فِي سَمْعِ حُسَّادِهَا	كَوَاكِبُ الرَّجْمِ يَحْرِقْنَ الشَّيَاطِينَا

(المصدر نفسه: ٥٠٥)

وهو يقول: إنّ من سمع شعره عرف أنّ الأندلس لم تنس، فلا تزال حية نضرة، ولا يزال شعراؤها العظام في الذاكرة من أمثال المعتمد ابن عبّاد أمير إشبيلية وشاعره الوجداني ابن زيدون. وقد ورى بالبحر والتون، حيث يريد بهما بحر الشعر ونون القافية في القصيدة لا الحوت، و يسمي حسّاده باسم الشياطين، ويعتبر ألفاظ شعره شهياً ثاقبة تسقط عليهم وتحرقهم، فتجعلهم رماداً تذرّوه الرياح.

دولة الشعر

درج بعض شعراء المماليك على مسابرة السلطان ومواكبته في المناسبات والمواسم وغيرها، لكن البعض الآخر تجاوز ذلك إلى ما هو أبعد من المواكبة؛ فبنوا لأنفسهم، وفي معظم قصائدهم، و لاسيما المدحية، هيكلاً أطلق عليه اسم "دولة الشعر"، وهي كناية عن مشاعر تفوق وتمايز، دعتهم إلى نوع من الفخر الذاتي في مضماري الشعر والقريحة الشعرية التي تدفع بالكلام الشعري. ومن هؤلاء الشعراء ابن نباتة المصري الذي لا يتردد، وهو في حضرة المديح السلطاني المؤيدي عن الإشادة بشعره و قصيدته، (الأيوبي، ١٩٩٥: ٢٧٤) فيقول:

وإني إذا أجهدتُ مدحي فإتما	فُصَارَى مِنْهَا أَنْ أَقُولَ فَأَخْجَلَا
لبابك يا ابن الأكرمين بعثتها	أوانسَ من مدحٍ عن الغيرِ جُفَلَا
وأرسلتها غراءَ كالغصنِ يانعاً	وزهرِ الربا ريان، والريحِ سلسلا

...

شبيتُ لها فكري وفاحت حروفها	كأني قد دخنتُ في الطرس مندلا
-----------------------------	------------------------------

...

وكم مثلها أهديتها طي مدرج
يفوه بها الراوي فيملاً لفظها
تكاد لفرط الشوق أن تتسللاً
فم الخلل درأ أو فم الضد جندلاً
(ابن نباتة، د.ت: ٥٥٠-٥٥١)

وهناك مفاخر كثيرة لابن نباتة جعلها في خواتم شعره، ولاسيما في مدائحه التي هيمنت على موضوعات ديوانه، ففي إحدى مدائحه بعد أن عدّ محامد ممدوحه وفضائله تحدّث عن دولة شعره ودور ممدوحه في إنشاد مدائحه وشهرتها بين الناس حيث يقول:

وكم أنظقتُ نُعماءهُ مِنّي مدائِحاً
وروى نباتياً من القول طالما
سرى ذكرها غرباً وشرقاً فأذلجاً
سقاها أبوه الغيث نوا مُشججاً
أبا الخير خُذها من ثنائي كرائمياً
أوانس أبكارٍ يحقّ لحُسْنِها
على ساكنِ الأمصارِ أن يتبرجاً
ويجري بذكرها المطيُّ على الوجا
تهبُّ لِقُياها الكرام من الحيا
(المصدر نفسه: ٩١)

رجع ابن نباتة في أواخر حياته إلى مسقط رأسه مصر، فأكثر من مدح الشاعر الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون، لأنه حقق له حلم العودة إلى وطنه بعد غياب طويل، وأمره على الشعراء جميعاً، وأمر أن ينسخ ديوانه ويوزع في المكاتب السلطانية، (باشا، ١٩٩٩: ٣٥٠) وقد أشار الشاعر إلي ذلك أكثر من مرّة:

و قدّمْتَنِي على الأقرانِ ذو نِعَمٍ
وقال قومٌ بما قد نلتَ تقدمةً
حتى جدّعتَ به أنفَ ابنِ جدعانِ
فقلتُ مذ أمرَ السلطانُ ديواني
(ابن نباتة، د.ت: ٤٩٣)

كما أشار إلى هذه الإمارة الشعرية له ولديوانه في مقطوعة صغيرة :

يا أيّها الناصر السلطان لا غمضتْ
كم في ملوكِ الورى فضلٌ و معرفةً
عينٌ لها من سنا مرآك سلوان
كانوا و مثلك في ذا النحو ما كانوا

...

أمرت شعري يا خير الملوک علی أشعار قوم فلي أمر و ديوان

(المصدر نفسه: ٥١٩)

فقد عاصر ابن نباتة كثيراً من رجال العلم والأدب، فمدحهم كما مدح الحكام والأمراء والوزراء، ويتطرق في ضمن مدائحه إلى شعره، ويفتخر به، فيقول مخاطباً قاضي قضاة الشام:

أمولاي خُذها ذاتَ نظمٍ موشحٍ علی أوجه الأنداد ذاك رداغ

وما القول إلا كالورى متفاوتٍ فمنه سهيلٌ أو فمنه تواعُ

(المصدر نفسه: ٣٢١-٣٢٢)

فيدعي أن هذه الأبيات التي أهداها إلى قاضي القضاة أبيات مزينة تبهج الأصدقاء و تفضح الأعداء، كما يدعي أن شعره قد وصل إلى درجة من الحسن والجودة لا يصل إليها شعر الآخرين، وذلك لأن الكلام مختلف في الحسن والجمال، كما أن الناس مختلفون في الخلقة والطباع.

وعلى نفس الغرار ينشد في مدح السلطان التاصر الحسن مفتخراً بنظمه، وهو يُقارن بين نظمه ونظم الآخرين، فيصف شعره بأنه كالزهر يثير الإعجاب، ويصف شعر غيره بأنه كالشوك، يؤذي الآخرين، ويدعي أن نظمه مع قلته له قيمة ومكانة عالية، وأن نظم الآخرين مع كثرتهم لا يقضي مآرب الناس، ولا يُلبّي حاجاتهم، كما يدعي أن الشعراء الآخرين قد كرروا ألفاظه فيقول:

كم مثلها قلت في روض الشباب و كم قد قال غيري فبان الزهر و الحسك

فصرت نظمي إلا أنه نخبٌ وطول الناس إلا أنهم لبكوا

وما تقصت لبات لطائفه قالت حلاوة ألفاظي لقد علكوا

(المصدر نفسه: ٣٦٣)

و في قصيدته الرائية التي يمدح فيها الملك المؤيد، يشيد بمدائحه، ويعتبر نفسه الشاعر الذي يجدر بالملك أن يستمع إلى مدائحه، بينما يعتبر الآخرين «شعورا» أي شعراء سخيفي النظم لا يجدر الاستماع إلى أشعارهم فيقول:

فانعم به وبأمداحٍ مُشعشةٍ مديرها في صباح الفطر مبرور

نَفَاحَةُ الْمَسْكَ مِنْ مَسْوَدٍ أَحْرَفُهَا مَا كَانَ يَبْلُغُهَا فِي مِصْرٍ كَافُورٍ
بَعْضُ الْوَرَى شَاعِرٌ فَاسْمَعْ مَدَائِحَهُ وَبَعْضُهُمْ مِثْلَمَا قَدْ قِيلَ شَعْرُورٍ
(المصدر نفسه: ١٨٦)

و في موضع آخر يفتخر بمدحته، وينادي بمدوحه الملك المؤيد في ختام القصيدة، وهو يشبه مديحه في حقه بالعروس التي تنتمي إلى مصر، فيكبر شغفاً لما صنع للملك حيث يشير:

يَا ابْنَ الْمُلُوكِ الْأُولَى خُذْهَا عُرُوسَ ثَنَا مِصْرِيَّةَ الْمُتَنَمِّي غَرِيبَةَ النَّفْسِ
اللَّهُ أَكْبَرُ صَاغَ الْحَقَّ مَادِحِكُمْ كَأَنَّهُ نَاطِقٌ عَنِ حَضْرَةِ الْقُدْسِ
(المصدر نفسه: ٢٦٤)

وفي قصيدة يمدح فيها كمال الدين الزمكاني يقلل من شأن الشعراء الذين مدحوه، ويخاطب الممدوح ويقول له: لا يليق مجدك وعظمتك إلا مدائحي، لأن معانيهم السخيفة، جريمة في حقك يكفيهم الإنصات منك، فالفضل منك متوقع وحق الفضل إكرام نظمي ورفض نظم الآخرين. ثم يشبه نظمه بالعروس المجلوة التي يركع أمامه نظم الناظمين في أبيات تالية:

يَزَاحِمُونَ بِأَشْعَارٍ مَلْفَقَةٍ كَأَنَّهَا بَيْنَ أَهْلِ الشَّعْرِ حَشَوَاتُ
أَعْيَدُ مَجْدَكَ مِنَ الْفَاطِمِمْ فَلَهَا جَنِي كَأَنَّ مَعَانِيهِمْ جَنَايَاتُ
لَا يَغْرَهُمْ بِنْدَى يَأْتِيهِمْ فَكْفَى مَدْحًا بِأَنْ يَأْتِيَ مِنْكَ إِنْصَاتُ
إِنْ لَمْ تُفَرِّقْ بِفَضْلِ بَيْنَ نِظْمِهِمْ وَبَيْنَ نِظْمِي فَمَا لِلْفَضْلِ لِدَاتُ
حَاشَاكَ أَنْ تَتَسَاوَى فِي جَنَابِكَ مِنْ قِصَائِدِ الشَّعْرِ سَوَاتٍ وَجِبَهَاتُ
خُذْهَا عُرُوسًا لَهَا فِي كُلِّ جَارِحَةٍ لَوَاحِظٌ وَكُؤُوسٌ بِأَبْلِيَاتُ
أُورِدَتْ سُوْدُذَكَ الْأَعْلَى مَوَارِدَهَا وَلِلْسُهَّا فِي بَحَارِ الْأَفْقِ عِبَاتُ
شَمَاءُ يَرْكَعُ نِظْمُ النَّاطِمِينَ لَهَا كَأَنَّمَا أَلْفَاظُ الْخَطِّ دَالَاتُ
(المصدر نفسه: ٧١)

وفي موضع آخر يجعل ابن نباتة نفسه مع الممدوح في مستوى واحد، إذ يشبه نفسه في الشعر والأدب وممدوحه في الفضل والوجود والسماحة بالبحر، فيتفاخران بالشعر والأدب والوجود والسماحة:

وتاجاً على رأس السيادة يجتلي
 مزجنا بحور الفضل و الشعر بينا
 فينظم درّ المدح فيه وينثر
 فها نحن في هذا وذا نتبخر
 لعمري لقد قلت الرقيق لمدحه
 و إن رقيقاً قلته لمحرر
 (المصدر نفسه: ٢٢٧)

ظاهرة الأنا في شعره

لقد كان الشعر وما يزال راصداً رؤية الإنسان لنفسه وللأشياء من حوله مبيّناً علاقات الإنسان بما حوله، وتفاعله المستمر مع الحياة، وحواره مع شخصها، باسطاً لنا عبر اللغة آماله وآلامه وتطلعاته بالكلمة المنعومة الموحية. والشعر لا يقنع بواقعه، ولا يستسلم للقوانين التي تفرض عليه، وأكثر المبدعين لهم إنجازات تجاوزت قواعد الفن في عصرهم، لأن الفن حركة والنقد تعقيد(فهيم، ١٩٨٦: ٢٠٥).

فظاهرة «الأنا» في الشعر هي أن يتناول الشاعر ذاته، ويمدح نفسه، ويبرز شخصيته مستخدماً ضمير المتكلم بصوره المختلفة. تبرز هذه الظاهرة بصورة واضحة في فن المديح وخاصة في المديح المعكوس الذي يتناول فيه الشاعر ذاته مبلوراً عبقريته (المصدر نفسه، ٧٦)، وذلك لأن الفنان معجب بنفسه ومفتون بعمله، ومعظم الفنانين يريدون الأفضلية لأنفسهم دون غيرهم، وإن لم يعلنوا عنها، فهم ينتظرون كي يسمعوها من الآخرين، وقد بالغوا في وصف أشعارهم.(زرّين كوب، ١٣٧١: ١٥١) وقد تجلّت هذه الظاهرة بصورة واضحة في مدائح ابن نباتة وفي بعض مقطوعاته الشعرية؛ ففي مقطوعة شعرية يدعي أن الأدباء قد أخذوا منه أدبهم وذكاءهم، ويقول مستخدماً ضمير المتكلم:

عندي استفاد ذوو التآدب و الذكا
 فأنا الحقيق بقول أحمد من إذا
 قولاً نباتياً رَعَوْا روضاته
 قَطَفَ الرِّجَالُ الْقَوْلَ عِنْدَ نَبَاتِهِ
 (ابن نباتة، د.ت : ٨١)

وفي سياق مدحه للملك المؤيد، صاحب حماة، يعتبر نفسه أحسن الناس شعراً، ويقارن بين مكارم الممدوح وشعره، فيسمي ممدوحه ربّ المكارم، ويسمي نفسه ربّ القريض، فيقول مستخدماً ضمير المتكلم و ضمير «أنا» بالذات:

تعلّمت أنواع الكلام برفده
 فأصيحت أعلى الناس شعراً وأحسنه

إذا قيل من ربُّ المكارمِ في الورى أفل هو، أو ربُّ القريض أفل أنا

(المصدر نفسه: ٤٨٩)

وله على نفس الغرار بعد إحصاء صفات الملك المؤيد مفتخراً بشعره يشبهه بالقصر قائلاً:

وجملتُ فيك الشعرَ حتى نظمته وأحملتُ أربابَ القريضِ كأنني
فلازلتُ مخدمَ المقامِ مُخلداً شكرتُك حتى لم تدعْ لي لفظةً
لأنك قد أوهنتَ جهدي باللهي فَمَا البيْتُ أَلَا مِثْلُ قِصْرِ مُشَيِّدِ
أدرتُ على أسماعهم كأسَ مرقَدِ ومن يكتسبُ هذا التناءَ يخلدُ
وكِدْتُ بأنْ أشكوكَ في كلِّ مشهدِ وأنسيتني أهلي و أكثرتُ حُسدي

(المصدر نفسه: ١٣١)

وهذا يعني أن الإنسان ضعيف، ويعلم أنه ضعيف، وأن الإعجاب الذي يمنحه للآخرين ليس سوى انعكاس لإحساسه الخفي، مهما حاول أن يغطّي هذا الإحساس بضروب من العظمة الشكلية أو الوهمية، ولكن أليس في الصّراع الإنساني الأزلي من أجل المنافسة أو التفوّق حتى الوصول إلى التّظاير ما يدفع الإنسانية كلّها إلى التقدّم بغضّ النظر عن حسد القاعدين؟ (فهيمى، ١٩٨٦: ٧٦)

النتيجة

الفخر من فنون الشعر الغنائي يتغنّى فيه الشّاعر بحصال نفسه أو بخلال قومه مؤكداً على رفعة الحسب والنسب والكرم والشجاعة ومكارم الأخلاق انطلاقاً من حبّ الذات كنزعة إنسانية طبيعية. وللشعر أنواع مختلفة منها الفخر الذاتي، والفخر الحزبي والسياسي، والفخر الديني، والفخر الحزبي، والفخر الأدبي. والفخر الأدبي هو أن يفتخر الشاعر بشعره وشاعريته ومواهبه الشعريّة، فما توصلنا إليه من خلال بحثنا هو:

١. أنّ الفخر كان من الفنون الأدبية الشائعة في الأدب العربي في العصور المختلفة. فقد تقلّصت هذه الظاهرة في العصر المملوكي دون أن ينتهي من قاموس أغراض الشعر في هذا العصر.

٢. من الشعراء الذين تطرّقوا إلى الفخر في شعرهم في هذا العصر جمال الدّين ابن نباتة المصري، وهو لم يُخصّص له باباً، بل تطرّق إليه في خاتمة مدائحه ومقطوعاته الشعريّة.

حيثُ يدور معظم فخرياته حول الفخر الأدبي، فيفتخر بشعره وقريضه كما يفتخر بشاعريته و مواهبه الشعريّة.

٣. كان ابن نباته كثير الإعجاب بشعره، فنراه من خلال أشعاره فخوراً متخايلاً يفتخر بشعره، ويفضّله على شعر بعض فحول الشعراء في العصور الماضية، فيستخدم في فخره الأدبي أسلوب دولة الشعر كما يستخدم ظاهرة «الأنا» في شعره كثيراً.

المصادر

- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، بيروت، دار صادر، الطبعة الثالثة، ١٤١٤.
- ابن نباتة، جمال الدين، ديوان ابن نباتة، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت.
- أميري، سيّد محمد، «التصوير الفنيّ الباهت للتراث في شعر ابن نباتة خاصة مدائحه النبويّة»، مجلة بحوث في اللغة العربية و آدابها، جامعة اصفهان، العدد ٥، ١٣٩٠.
- أمين مقدسي، أبو الحسن، «أثر القرآن على شعر ابن نباتة»، مجلة كليّة الآداب و العلوم الإنسانيّة، جامعة طهران، العدد ٤١ و ٤٢، ١٣٧٩.
- _____، «مقدّمة على شعر ابن نباتة»، مجلة كليّة الآداب و العلوم الإنسانيّة، جامعة طهران، العدد ٤٣ و ٤٤، ١٣٧٩.
- الأيوبي، ياسين، آفاق الشّعر العربي في العصر المملوكي، طرابلس، جرّوس برس، الطبعة الأولى، ١٩٩٥.
- باشا، عمر موسي، تاريخ الأدب العربي: العصر المملوكي، دمشق، دارالفكر، ١٩٩٩.
- بروييني، خليل، و زيني وند، تورج، «الفخر في شعر الممتنّي و الخاقاني»، مجلة كليّة الآداب و العلوم الإنسانيّة، جامعة فردوسي، مشهد، العدد ٣٧، ١٣٨٣.
- حريجي، فيروز، و صدقي، حامد، و ملايي، علي أكبر، «صورة الفخر في شعر أبي فراس الحمداني»، مجلة الجمعيّة العلميّة الإيرانيّة للغة العربية و آدابها، جامعة تربيت مدرّس، العدد ١٨، ١٣٩٠.
- السخفاجي، عبدالمنعم، الحياة الأدبية بعد سقوط بغداد حتى العصر الحديث، بيروت، دارالجيل، الطبعة الأولى، ١٩٩٠.
- الرافعي، مصطفى صادق، تاريخ آداب العرب، بيروت، دار الكتب العلميّة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠.
- زرين كوب، عبدالحسين، شعر بي دروغ، شعر بي نقاب، تهران، انتشارات علمي، ١٣٧١.
- السبكي، تاج الدين عبد الوهاب، طبقات الشافعيّة الكبرى، دار الحجر للطباعة و النشر و التوزيع، ١٤١٣.
- سراج الدّين، محمّد، الفخر في الشّعر العربي، بيروت، دار الرتب الجامعيّة، د.ت.
- الشوكاني، محمد بن علي، البدر الطالع بحاسن من بعد القرن السابع، بيروت، دار المعرفة، د.ت.

صدقي، حامد، وحيدري منش، رحمت الله، «الخصائص الفنيّة لشعر ابن نباتة الشاكي»، مجلة إضاءات نقدية، السنة الأولى، العدد الأول، ١٣٩٠.

العسكري، أبو هلال، الصناعتين، الكتابة و الشعر، بيروت، المكتبة العصرية، ١٤١٩.
الفاخوري، حتّا، الفخر والحماسة، القاهرة، دارالمعارف، الطبعة الثانية، د.ت.
فروخ، عمر، تاريخ الأدب العربي من مطلع القرن الخامس الهجري إلى الفتح العثماني، بيروت، دارالعلم للملايين، ١٩٨٩.

فهمي، ماهر حسن، قضايا في الأدب والتقد، الدوحة، دار الثقافة، ١٩٨٦.
القيرواني، ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر و آدابه، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ٢٠٠١.
يوسف، خالد ابراهيم، الشعر العربي أيام السماليك ومن عاصرهم من ذوي السلطان، بيروت، دار النهضة العربية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣.